

صورة النبي نوح بين القرآن والتوراة



لنتفحص الآن، شخصية أو صورة النبي نوح على سبيل التمثيل، لنرى مراحل تكونها بحسب نزول القرآن، ونضع اليد على الأجزاء المستبعدة منها، والأجزاء التي تم التركيز عليها، والأجزاء المستحدثة التي تفيض في واقع الدعوة المحمدية. وعندما نقول "المستحدثة" فإننا نقصد سرد الأجزاء من خلال ثقافة العصر، مفاهيمها وعاداتها وأدابها وطبيعة علاقتها، أي أنّ السرد هنا، يراعي وجهة النظر التي استحدثها القرآن، وهو ينزل في عصر يختلف عن العصر الذي وقعت الأحداث فيه.

في المواقع الأولى التي ذُكرت فيها قصة نوح، إشاراتٌ إلى الأقوام التي كذبت رسالتها، على سبيل الإجمال، وأوّل تفصيل للقصة يأتي في "سورة الأعراف": (تس 39): (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّمَا يُخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ أَبَدٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ * قَالَ الْمُلَائِكَةُ إِنَّمَا لَنَذِرَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكُنْتُ إِنْسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلَّغُكُمْ رَسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعْجِبْتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لَيُنْذِرَكُمْ وَلَتَتَذَفَّعُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْهِمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْزَجْنَاهُ

وَالْمُكَذِّبِينَ مَعَهُ فِي الْفُلُوكِ وَأَغْرِقْنَا الْمُكَذِّبِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا فَوْمًا عَمَّا يَرَى.

تبعد عناصر القصيدة على الشكل الآتي:

- 1- إرسال الله نوحًا إلى قومه.
- 2- دعوة الرسول إلى توحيد الله وإنذارهم بعذاب الآخرة.
- 3- صدود قومه عنه ومجادلتهم في دعوته.
- 4- كشف تعجبهم من إرسال الرسول رجلاً منهم.
- 5- النهاية بعذاب المكذبين ونجاة المؤمنين.
"سورة الشعراة" (تس 45) تصيف أوصافاً أخرى:
6- أمانة الرسول.
- 7- إنّه لا يطلب أجرًا أو ثمنًا لدعوته.
- 8- إنّه لا يستطيع رد من آمن به من المستضعفين أو الأراذل كما يسميهم الخصوم، بمعنى أن من آمن به جمع غفير لا يقوى على مخالفة إرادته.
- 9- تهديد الرسول بالرجم.
- 10- توجّهه إلى الله بعد أن ضاقت به سبل الدعوة.

وتكرر السورة "سورة الشعراة" موجزاً لنهاية نوح ومن معه في الفلك المشحون وإغراء الآخرين.
(الشعراة: 120-105).

- وفي "سورة الإسراء" (تس 48):
- 11- إشارة إلى أن بنى إسرائيل هم من ذريته، ممن كان محمولاً مع نوح. (الإسراء: 3).
 - ويأتي في سورة هود تفصيل آخر، سنترك المواقع المكررة المذكورة في ما سبق، ونركّز على الملامح الجديدة:
12- استخفاف قوم نوح به، لأنّه يدعى نوحًا رسول نذير، وهم يرونـه بشراً مثلـهم، ليسـ لهـ منـ فـضـلـ عـلـيـهـمـ.
 - 13- عجزـهـ عـنـ إـفـهـاـمـهـ دـعـوـتـهـ، وـهـمـ كـارـهـونـ.
 - 14- تأكـيدـ بـشـريـتـهـ وـكـوـنـهـ رسـولـاـ منـ اللهـ فـحـسـبـ، فـلـيـسـ عـنـدـهـ خـرـائـنـ اللهـ، وـلـاـ يـعـلـمـ الغـيـبـ، وـلـاـ يـدـعـيـ أـنـهـ مـلـكـ، وـلـاـ يـسـتـطـعـ الحـسـمـ فـيـ إـيمـانـ الـمـؤـمـنـينـ بـهـ.
 - 15- عـجزـهـ عـنـ جـدـالـهـ وـطـلـبـهـ أـنـ يـأـتـيـهـ بـمـاـ يـهـدـدـ بـهـ، أـيـ مـطـالـبـهـ بـشـيـءـ مـعـجزـ.
 - 16- العـودـةـ إـلـىـ اللهـ، فـهـوـ الـذـيـ أـرـادـ أـنـ يـغـوـيـهـ، لأنّـهـ رـبـهـ وـإـلـيـهـ يـرـجـعـونـ.
 - 17- إـعـلـانـ مـسـؤـلـيـتـهـ عـنـ دـعـوـتـهـ وـبـرـاءـتـهـ مـنـ كـفـرـهـ.
 - 18- إـلـيـمـاءـ إـلـىـ نـوـحـ بـأـنـهـ لـنـ يـؤـمـنـ مـنـ قـوـمـكـ إـلـاـ مـنـ آـمـنـ.

- 19- الإيحاء إليه بصناعة الفلك وبيان سخريتهم منه.
- 20- مجيء الأمر الإلهي بالطوفان، وبأن يحمل زوجين اثنين من كل مخلوق وأهله والمؤمنين به وهم قلة.
- 21- وصف أمواج الطوفان، ونداء نوح ابنه وعميابن الابن بصعوده إلى جبل.
- 22- ذهاب الماء ورسو السفينة على "الجودي".
- 23- مناجاة نوح ربها بشأن ابنه وردع الله له.
- 24- الهبوط بسلام. (هود: 48-25).
- وفي "سورة يوئيل" (تس 51) :
- 25- تفصيل حوار نوح مع قومه.
- 26- هو مأمور بأن يكون من "المسلمين".
- 27- أنَّ إِلَهَكُمْ بَعْدَ رَسْلِنَا إِلَى أَقْوَامِهِمْ. (يوئيل: 71-74).
- وفي سورة "الصافات" (تس 53) :
- 28- أن إبراهيم من شيعة نوح. (الصافات: 83).
- 29- تسويع تكذيبهم له لأنهم يرون أنَّ إِلَهَكُمْ يُنْزَلُ ملائكة لا بشرًا مثلكم، فهو - إذاً - مجنون.
- وفي "سورة الأنعام" (تس 69) .
- 30- من ذرية نوح، وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون. (الأنعام: 84).
- وفي "سورة نوح" (تس 71) :
- 31- تفصيل الحوار وبيان أدلة جداله مع قومه.
- 32- تفصيل عنادهم وصدودهم.
- 33- ذكر آلهتهم وأصنامهم: "ود" و"سواع" و"يغوث" و"يعوق" و"نصر".
- 34- دعاء نوح إلى قومه. (نوح: 1-28).
- وفي "سورة العنكبوت" (تس 83) :
- 35- بقاء نوح في قومه تسعين سنة. (العنكبوت: 14).
- وفي "سورة القمر" (تس 85) :
- 36- وصف نوح بالجنون من قبل قومه.
- 37- آية نوح هي السفينة التي بناها بعانياه إِلَهَهُمْ. (القمر: 9-16).
- وعندما تأتي المرحلة المدنية من الوحي، تختلف القصة اختلافاً بِيَدِنَا عما في المرحلة، المكية، فلم يعد فيها تفصيل، فيرد نوح صن من مجموعات الأنبياء التي يشار إليها في قضية معينة، يجري الكلام فيها، كأخذ الميثاق أو الوحي أو علاقات الأنبياء في ما بينهم.
- يندرج اسم "نوح" ضمن كتاب مواليدبني آدم الذي بدا الإصلاح الخامس من "سفر التكوين" به، وهو يذكر

عمر آدم قبل أن يلد ابنه شيثاً، ثم عمره بعد ولادته. وكذلك الأمر مع سلسلة طويلة من المواليد، فمثلاً "وعاش شيث مئة وخمس سنين وولد أنوش، وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانى مئة وسبعين سنين وولد بنين وبنات فكانت أيام شيث تسع مئة وأثنى عشرة سنة ومات". وتتوالى السلسلة: أنوش، قينان، مهلائيل، يارد، أختوخ، متواسلح، لامك، نوح.

لقد حرست التوراة على التنصيص على عمر كل شخص في هذه السلسلة، وتفصيله قبل ولادة الآباء وبعدها وبعبارات مكررة، ولم يحرض القرآن على ذلك. ربما هناك أسباب كثيرة لذكر التوراة التفاصيل، إلا أنّنا يمكن أن نقول إن سلاسل النسب ومدد الأعمار، لم تعد ذاته فائدة في القرآن، لأنّ غاية القرآن، من ذكر قصص الأنبياء والأمم السالفة، هيأخذ العبرة والموعظة، فكانت وجهة النظر القرآنية تتجه نحو مَعْلِم خاص من معالم القصة، وتجعله محوراً لها، في حين ترك المعالم الأخرى.

وعلى مستوى آخر، تبدو صورة الرب في التوراة مختلفة عنها في القرآن. الصورة التوراتية تجعله قريباً جداً من الإنسان، يحزن ويتأسف وينتقم، ويبعد مخلوقاته التي يفترض أنه خلقها. ولهذه الفكرة مجال آخر، نريد من ذكرها هنا أنَّ القرآن قدَّم صورة أخرى للرب (١٠) متطرفة عما هي عليه في التوراة، وكذلك عما هي عليه في الإنجيل، أي في طورها الأخير من أطوار التجريد والإطلاق. يقابل وصف نوح التوراتي "وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب"، وصف القرآن له: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) (الإسراء/ ٣). (إِنَّهُ مِنْ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) (الصافات/ ٨١).

وأمر الله نوحًا بصناعة الفلك "اصنع لنفسك فلكًا" من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً

ارتفاعه، وتصنع كوى للفلك وتكمّله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله".

والقرآن يخلو من تفاصيل صناعة الفلك، ومن بيان أطواله، وموضع بابه، وكيفية السكن فيه. ما جاء في القرآن يصوّر أنَّ إِلَهُ نوح أوحى إلى نوح، بصناعة الفلك بوصف موجز جدًا: (وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَحِينَ) (هود/ 37). (فَأَنْجِيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَسْجُونِ) (الشعراء/ 119). (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) (القمر/ 13). ولكن شأن الفلك، بالنسبة إلى العلاقة بين إِلَهٍ ونوح في القرآن، على درجة كبيرة من الأهمية، إذ إنَّ الفلك في القرآن آية، أي معجزة منحه إِلَهٌ إياها، إشارة إلى أنَّه رسول من عند إِلَهٌ: (جُرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفُرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُذْكَرٍ) (القمر/ 14-15).

وهذا يعني أن هناك تفاصيل كثيرة أُهملت؛ تفاصيل الصناعة التي قدمتها التوراة، مما لا يعني شيئاً مهماً بالنسبة إلى المخاطبین بالقرآن. المهم أن تكون هناك معجزة؛ آية من إِلَهٍ، وقد تحقق الإعجاز في قصة نوح، في الفلك التي صنعت بمحض إِلَهٍ ورعايته، ولها القدرة على حمل نوح وأهله وزوجين من كل المخلوقات، أي أنها لا تجري بسبب مادي، بل بأسباب إلهية.

وفصلت التوراة كذلك، في أمر الراكبين في الفلك، وكررتها: "فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كل ذي جد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستيقاؤها معك. تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كل تدخل إليك لاستيقاؤها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجعله عندك. فيكون لك ولها طعاماً".

ثمَّ في موضع لاحق: "في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم في الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الدبابات التي تدبُّ على وجه الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور وكل ذي جناح. ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره إِلَهٌ وأغرق الرب عليه".

وقد تُركت في القرآن، كل التفاصيل، إذ لم تعد إليها حاجة، فلم تذكر فيه أسماء أبناء نوح، ولا نسائهم ولا الوحوش والبهائم والدبابات والطيور، ولا الذكر والأنثى منها. لقد جاء في القرآن: (قُلْنَاهُمْ لِرِبِّهِمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ إِنَّ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلْبِيلُ) (هود/ 40). (فَاسْتَلْكُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ إِنَّ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) (المؤمنون/ 27).

واعتمدت التوراة على تفاصيل عمر نوح، وجعلته تقويمًا يستند إليه تاريخ الطوفان، ومع ذلك كان التفصيل في ذكر الحوادث ملازماً لكل حدث من أحداث الطوفان. سنأخذ أمثلة مختصرة من كل ذلك: "ولما

كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض، فدخل نوح وبنوه... وحدث بعد السبعة أيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض في سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم... ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحه على الأرض فهدأت المياه. وانسنت ينابيع الغمر وطاقات الأرض فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متواالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقرَّ الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متواالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر من أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال... وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أنَّ المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفَّت الأرض... وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات...".

ولم يرد ذكر لهذه التفاصيل في القرآن، فمن حيث الأحداث جاء فيه: (وَقَيْلَ يَـا أَرْضُ ابْلَـعِي مَاءَكَ وَيَـا سَمَاءَكَ أَقْلَـعِي وَغَيْضَ الْمَاءُ وَقُصْـيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَـتْ عَلَـى الْجُودِيـ وَقَيْلَ بُعْدَ لِـلـقَـوْمِ الـطَّـالـمـيـنـ) (هود/ 44).

ومن حيث عمر نوح: (وَلَقَدْ أَرْسَـلَـنـا نُوـحـا إـلـى قَوْمـهـ فـلـأـبـثـ فـيـهـمـ أـلـفـ سـنـةـ إـلـا خـمـسـيـنـ عـامـاـ فـأـخـذـهـمـ الطـوـفـانـ وـهـمـ ظـالـمـيـنـ * فـأـزـجـبـنـاهـ وـأـصـحـابـ السـفـينـةـ وـجـعـلـنـاهـ آيـةـ لـلـعـالـمـيـنـ) (العنكبوت/ 14-15).

وإذا كان القرآن لا يعتمد على عمر نوح، كما اعتمدت التوراة، فإنه كذلك لم يفصل الأحداث تفصيلاً، ولم يصف جزئياتها كما وصفت التوراة، وترك أحداثاً تقع ضمن قصة الطوفان التوراتية، من ذلك إرسال نوح الغرابَ والحمامَ لفحص الأرض، وبناء نوح مذبحاً للرب، وبدء حياة نوح الفلاحية وما جرى مع أبنائه.

إنَّ ما قدمناه يبين أنَّ القرآن، وهو يعرض قصة نوح، ترك أحداثاً منها وردت في التوراة، وأهمل كذلك، كثيراً من الجزئيات والتفاصيل، وعني بالدرجة الأولى، بالمفاصل القصصية التي رأها مهمة في تاريخيته، وهو يتنزل في زمان ومكان معيناً.

بقي جانب آخر؛ وهو الجانب الذي عرضته قصة نوح القرآنية، وهو ملاصق للواقع التاريخي للنبي القرآني. وهنا نقول إنَّ القرآن وظَّفَ القصة لمنفعته، يجعلها إطاراً رتيباً تفصيلاته الجديدة بحسب الواقع التاريخي. إنَّ الغاية من سرد القصة: قصة نوح، تتجلى فيأخذ العطة والعبرة منها، فيجب التركيز على تقديمها بشكل يلائم الواقع التاريخي الذي عليه قصة النبي محمد (ص)، فتكون قصة نوح بهذا، معبرة عن الواقع الجديد، بتحول أحداثها، أو تفصيلات أحداثها من الماضي السحيق إلى الحاضر الحي المعيش.

ومن يُلْقِ نظرة إلى عناصر القصة التي قدمناها، يكتشف بسرعة، أنَّ العناصر مشتركة بين الماضي والحاضر، بين نوح ومحمد، فكأنها موطنةً أصلًاً للتعبير عن تفاصيل الدعوة الجديدة، ولا سيما ما يتعلق بشخصية النبي محمد، فهي تقدم كشفاً بمسيرة النبي منذ إعلانه النبوة إلى الهجرة، أو تمثل انعكاساً لتاريخ النبوة في المرحلة المكية.

سن تتبع العناصر التي كشفناها آنفاً، في قصة نوح التوراتية، لنجد على أنَّ المقصود بها عناصر قصة النبي محمد:

1- عن ابن عباس أزهـ قال: صعد رسول الله (ص) ذات يوم على الصفا، فنادى: يا صاحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ العدو مصيحكم أو مسييكم، أكنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

2- ولما نزلت الآية (وَأَنْذِرْ رَعَشِيرَ تَكَ الأَقْرَبَينَ) (الشعراء / 214)، قام رسول الله (ص) بالأبطح ثم قال: يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني قصي... حتى مر على آخرهم، إنني أدعوكم إلى الله، وأُنذركم عذابه.

ولما نزلت الآية (فَامْدَعْ بِهِمَا تُؤْمِرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر / 94)، صعد رسول الله بأمر الله، وبادى قومه بالإسلام. فلما فعل ذلك لم يبعد عنه قومه، ولم يردوا عليه بعض الرد، حتى ذكر آلهتهم وعاها. فلما فعل ذلك ناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوه، إلا من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

3- ولم يزل رسول الله مقيماً مع قريش في مكة، يدعوهم إلى الله سراً وجهراً، صابراً على أذائهم وتکذيبهم إياه واستهزائهم به، حتى أن كان بعضهم يطرح عليه رحم الشاة، وهو يصلبي.

4- عن ابن عباس أن جماعة من قريش اجتمعوا عند الكعبة، فقالوا: يا محمد، إننا دعوناك لنعذر إليك، فإن كنت جئت بهذا لطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت تطلب شرفًا سودناك علينا.

وقد نزلت آيات تحكي أقوالهم، وتفصل حوارهم وجدهم، ثم عقبت القصة بالآية: (وَمَا مَنَعَ الذَّانِ
أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *
قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِينَ لَذَرَرَ لَذَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً) (الإسراء / 94-95). وقد دخلت عليهم الشبهة في أزهـ لا يجوز أن يبعث الله رسولًا من الملائكة.

وهكذا، نستطيع إعادة ملامح كثيرة من السيرة النبوية من خلال عناصر قصة نوح القرآنية، وهذا يدل على ما سبق أن ذكرناه: توظيف قصة نوح لمعالجة قضايا الحاضر، ولا سيما ما يتعلق بشخصية الرسول محمد في المرحلة المكية من دعوة الإسلام، ويبدو أنَّ الأمر نفسه ينطبق على قصص الأنبياء الآخرين، ولا سيما المذكورون في التوراة.

المصدر: كتاب كلام الله... الجانب الشفاهي من الطاولة القرآنية